

١٤ - تاريخ العرب الأدبي

للاستاذ رينولد نيكلسون

الفصل الثالث

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمته محمد حسن ميسى

يقول ابن رشيقي القيرواني : « وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر ، أتت القبائل فبناتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ، وتبشرون الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتحليلد لمآثرهم ، وإشادة لذكورهم ، وكانوا لا يهتنون إلا بغلام يولد

يدعيه لأنفسهم الموظفون الانجليز كالمستشارين وغيرهم ، بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد العوبة في أيديهم ، كما كان الحال في ذلك الزمان (١) »

ونحب في ختام هذا التعليق أن ننبه إلى أننا ما قصدنا إلا أن ندلي بتعليل جديد للموقف الذي اتخذته المصلحة الكبير إزاء الانجليز ؛ وما أردنا بما ذكرنا من وقائع أن نتعرض بالنقد لرأي أستاذنا الجليل مصطفى عبد الرازق بك . فنحن أول من يعترف بفضل ، ونجل فيه شدة وفائه لاستاذ الامام محمد عبده وعمله الدائم على إحياء ذكراه

ونحيل إلينا أن الأستاذ الامام قد توسم علام هذا الاخلاص في تليذه الشيخ مصطفى فكاتب إليه سنة ١٩٠٤ يقول : « ولقد عرفت مني على حدائق سنك ما لم يعرفه الكبار من قومك . فله أنت والله أبوك ،

عثمان محمد هليل

مبعوث الجامعة المصرية بباريس

(١) انظر خطابي الأستاذ الامام إلى المستر « وانورد بكت » سنة ١٩٠٤ بشأن الحالة السياسية في مصر وما يقترحه من حلول (وثيقتان نشرتهما مجلة « الشباب » بالعدد ٢٨٠ من الأستاذ حسن الشجرائي بأديبه)

أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج (١) ،

وفي خلال هذا الزمن لم يكن هناك سوى أدب منطوق حفظته الرواية الشفهية . ولم يشرع في كتابته إلا بعد ذلك بزمان طويل . أما عصر الجاهلية فيشمل قرناً ونيفاً من السنوات ، أعني منذ سنة ٥٠٠ بعد الميلاد حينما نظمت أول قصيدة وصلت إلينا حتى عام هجرة النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) إلى المدينة سنة ٦٢٢ م تلك السنة التي تعد نقطة انتقال ومستهل عهد جديد في التاريخ العربي . وكان أثر هذه المائة والعشرين سنة كبيراً وخالداً ، فقد شهدت نشأة تدهور نوع من الشعر اعتبره أغلب المسلمين الناطقين بالضاد مثالا للابداع لا يتأتى الوصول إليه ، فهو شعر قد سار مع حياة القوم جنباً إلى جنب ، ووجد بينهم قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) بزمان طويل من الناحيتين الخلقية والروحية ، وقبل أن يؤلف الرسول بين أهوائهم المتشعبة وقبل أن يجعلهم أمة تسعى من أجل غاية مشتركة ، وترى إلى مقصد واحد . في هذه الأيام لم يكن الشعر من الكليات للأقليات المتخفة بل كان الوسيط المفرد في التعبير الأدبي (٢) ، وكان لكل قبيلة شعراؤها يعبرون بحرية عما يختلج في النفوس ويصورون أفكارهم ، وكان كلامهم الشفهي هذا ينطلق في رحاب الصحراء أسرع من انطلاق السهم ، ويجد آذاناً صاغية وقلوباً واعية عند جميع من يستمعون إليه . وفي وسط هذا الصراع الخارجي والتفكك كان هناك مبدأ يربطهم جميعاً : ذلك أن الشعر أحياناً وعمم المثل الأعلى الأوهو : « المروءة » ، ولو أنها كانت تقوم على عصية الدم القبلية ، ونرى أن روابط الدم مقدسة ؛ بيد أنها غدت رابطة غير واضحة تماماً بين القبائل المختلفة ، وأوجدت عرضاً أو اتفاقاً أساس اتحاد قومي في الشعور

ولقد حاولت في الصفحات التالية أن أتعقب أصول الشعر

(١) ابن رشيقي في الزهر للسبوطي (طبعة بولاق ١٢٨٢ هـ) ج ٢ ص ٢٢٦ م ٢٢ وما يليه . وقد ترجم هذه الفقرة سير شارلز ليل في مقدمته (ص ١٧) لكتابه Ancient Arabian Poetry ذلك الكتاب الرائع الذي ينبغي أن يكون في يدي كل آخذ بدراسة هذا الموضوع الدقيق .

(٢) ذكر الأستاذ الجليل احمد أمين في كتابه ضحى الاسلام (ص ٥) وشعر العرب بالقدرة على الشعر حتى قل احمد بن ابى دؤاد : ليس أحد من العرب إلا وهو بقدر على قول الشعر ، طبعاً ركب فيهم ، قل أو أكثر . المترجم

« خفا » واحداً من الصندل^(١) . وقد أبقى الهجاء على شيء من هذه العادات المستهجنة إلى عصر متأخر ، حينما تخلى منطق الشاعر الساحر عن مكائنه للهجاء والقذع الذي كان يكيل به الشاعر لخصومه السب ويسمهم بميم العار

وإن الطلائع الأولى المهمة للشعر العربي (التي غطت عليها حيويته الساحرة المعروفة) لم تترك وراءها أثراً في هيكل الأدب ، ولكن المهمة قد تكون سهلة نسبياً حينما نواجه قوماً جدد محافظين مستمسكين بالتقديم كالعرب . وقد يمكن القول بأن أقدم صورة للكلام الشعري في بلاد العرب كانت السجع أو كما ينبغي تسميته « النثر المقفى »^(٢) وإن وصف مناهض محمد عليه السلام إياه بأنه شاعر لما جاء به القرآن من صور له حتى بعد معرفة الموازين الشعرية واستنباطها ليظهر لنا أن هذه النظرة كانت لا تزال حتى ذلك الحين قوية ثابتة

وتطور السجع أخيراً - كما سنرى - فأصبح حلية لفظية فقط ، والميزة البارزة لكل فن من فنون البلاغة سواء في الخطابة أم في الكتابة ، ولكن كان له في الأصل مرمى بعيد يتصل عن قرب بالناحية الدينية ، ويختاره الشعراء والكهنة ومن على شاكلتهم ممن كانوا يعتبرون ذوي صلات بالقوى الخفية ليفسروا به للدهماء كل ما يحزبهم من مسائل عويصة لا يدرون لها تأويلاً ولا يعرفون لها حلاً . وتفرع من السجع فن آخر يجري على وزن يعد أقدم موازين الشعر العربية ذلك هو الرجز^(٣) ، وهو بحر شاذ العروض والتفاعيل يحتوي في الغالب على تفعيلتين أو ثلاث . ومن أوضح مميزات الرجز التي تظهر صلته القوية بالسجع أن نهايات شطراته تجري على قافية واحدة ، مع أنه في معظم البحور لا يحدث التصريح إلا في مطلع القصيدة . وزيادة على ما ذكرنا نجد ميزة أخرى للرجز ، هي أنه على الدوام يكون مرتجلاً ، فينشد الرجل الأرجوزة عند المفاجآت يفسر بها بعض مشاعر

العربي ، وأصف طبيعته وعناصره وخصائصه العامة ، وأن ألم بأبرز شعراء الجاهلية ، وبجميع شعر هذه الفترة ، ثم انتهى من ذلك إلى عرض الوسيلة التي حُفِظت بها حتى وصلت إلينا

كان العرب القدماء يعدون الشاعر كما يدل عليه اسمه - ذا صلة بالغيبيات ، وساحراً يؤاخي الجن والشياطين ويستمد منهم العون فيما يعرضه من مقدرة رائعة . وتوضح هذه النظرة إلى شخصيته ومكائنه التي يتبوأها بما يروى عن شاب أبت حبيته الزواج به لأنه لم يكن شاعراً أو كاهناً أو عرافاً^(٤) ، وارتقت بعد ذلك فكرة الشعر كفن إذ كان الشاعر الوثني في الجاهلية كاهن قبيلته ومرشدها في السلم والحرب ، وبطلها في معمر القتال ، تستشيرها إذا ما بحثت عن مرعى جديد ، ولا تضرب طنبها إلا حسب إشارته . وإذا عثر راودها المجهدون الظالمون على بئر نهلوا من مائها واغتسلوا به ، وقادهم إليه رافعين جميعاً عقيرتهم بالغناء كما فعل إسرائيل من قبل : « انبثق أيها الماء ، ويا هؤلاء غنوا له »^(٥) ،

ولا بد أن تكون قد وجدت في العصور الأولى ضروب أخرى من الشعر عدا أغاني الناي والحرب والترايل الدينية للأصنام - هذه الضروب كالتشبيب والرائاء ، كما كانت مواهب الشاعر تستغل أياً استغلال في الهجاء الذي كان في أقدم صورته « يبعث القبيلة على طلب الثأر ، ويُعد باعثاً من بواعث الحرب لا يقل عن الطعن والنزال »^(٦) ، كما يعد وعيده للعدو وتهديداته إياه دليل خطب جسيم ، أما منظوماته التي لا تقل عن السهام فتكافئ آثارها أثر اللعنات الصارمة يجريها الوحي على لسان نبي أو كاهن^(٧) ، وكان الشعراء يتناشدون أشعارهم في حلقات خاصة ذات طقوس وأنظمة خاصة ، كدهنهم أحد جانبي الرأس ، وإسدالهم العباءة ، واتعالمهم

(١) Freytag : Arabum Proverbia, Vol. II, P. 494.

(٢) ولا تزال مثل هذه الأغاني تسمع حتى اليوم في صحراء الشام النظر :

Emro Littmann : Neuarabische Volkspoesie (in) Abhand. der Kön. Gesellschaft der Wissenschaften, Phil.-Hist. Klasse, (Göttingen, 1901) P. 92.

وعلى صفحة ٨١ نجد مثالا من ذلك وهو : اطلع يا ذلونا ، حيث يردد عدة مرات

(٣) Goldziher : Abhand. Zur Arab. Philologie, Part I (Leyden 1896) P. 26 [Ueber die Vorgeschichte der Higa-Poesie.]

(٤) راجع ما كتبه جولد زيهر في المرجع السابق ص ٤٢ وما يليها

(١) جولد زيهر : شرحه ص ٤٦ وما يليها

(٢) رأى المؤلف في السجع واتصاله بأولية الشعر بنفق تماما مع رأى الأستاذ

الزيات (انظر كتابه تاريخ الأدب العربي) في أولية الشعر الجاهلي (المترجم)

(٣) يرى الدكتور G. Jacob أن البحور العربية نشأت من حداث العيس

لاتفاق رقع أخفانها راجع في ذلك ص ١٧١ وما يليها من كتابه :

Studien in Arabischen Dichtern. Heft III.

إلى

للاستاذ أحمده الطيرابلسي

حبيبي ! إن بدا الفجرُ ورفأ كثرُكَ الزهرُ
وغشى الطيرُ مخوراً لحناً كلها خمرُ
فلا تأسَ على أيا منا الفرحى ولا تعتبُ
هو الدهرُ ! ومن الدهرُ إن أخطأ أو أذنبُ ؟
حبيبي ! إن في قلبي ظلاماً ماله فجرُ
ولولا طيفُكَ الخطأ رُ ما شغ به كوكبُ !

حبيبي ! بان لي الكونُ ولم أكُ مدركاً بعضه
عرفتُ نجومه الخيري عرفتُ زهوره القُصه
عرفتُ النسمة الفرحى عرفتُ البلب الشادى
عرفتُ الحلم الزاهى عرفتُ الأمل الحادى
نشيد الروح ! هل كنا سوى طيرين في روضة ؟
فت ظلّ إلى ظلّ ومن وادٍ إلى وادٍ ...

أيامَ الهوى البرّ وأُمسياته الخنوة !
جفوت ولم يذق طفلاً ك بعدُ لنادة الصبوة
حبيبي ! ياترى هل تسعدُ الأيامُ قلبينا ؟
فأسو الجرح والذكرى ونسلو الغم والبينا ...
ألسنا في الشبابِ الحلو زَنَقَتَيْنِ في ربوه ؟
فما للعاصفِ المجنو ن يفرقُ بين غُصْنينا ؟

حبيبي ! إن دجا الليلُ وطافت بك أشباحه
وأورى طرفك الساجى جوى البعدِ وأتراحه
فإنسى بين أترابي وأصحابي وإخواني
غريب مُلهَبُ الأجفا ن وارى القلب كالماني !
حبيبي ! إن ليل الحب جرحُ القلب مصباحه
وهل يعبق نشر العود إلا وسنط نيران

الشخصية أو عواطف أو تجارب ، ومثل هذا ما ارتجله دويد بن زيد بن نهد القضاى وهو يتبأ للوت (١) :

اليوم يئى لدويد يئى لو كان للدهر بلى أبلته
أو كان قريزى واحداً كفته يارب نهب صالح حوته
ورب عبل خشن لوته (٢)

ويحسن أن تأتي في هذا المقام على ذكر بعض البحور الهلابة في الشعر العربى كالكمال والوافر والطويل والبسيط والخفيف وغيرها ، وإشاراً للاختصار أحيل القارىء إلى البحث الوافى عن هذا الموضوع في مقدمة سير شارلز ليل في كتابه Ancient Arabian Poetry (ص ٤٥ - ٥٢) . وكل البحور قياسية كما هو الحال في الأغريقية واللاتينية . وقد استنبط قواعد العروض من القصائد القديمة لأول مرة ونظمها ورتبها الخليل بن احمد اللغوى (٧٩١ م) الذى يقال إن الفكرة طرأت له حينما شاهد حداداً يضرب بمطرقة على السندان

ولا يدلنا الآن من أن نبحت في نظام وموضوع هذه الأشعار التى تعد أقدم ما فى التراث العربى ، فبين هاته النصوص البالغة حد الإتقان والروعة وبين شواهد السجع أو الرجز النافهة بون شاسع ليس من اليسير تحديده . وأول من نعرف من الشعر هؤلاء الذين تلوح فى آثارهم إجادتهم لصناعتهم وإبداعهم فيها ، وإن عدد الموازين التى يستعملونها وتعقدوها وقوانينهم الثابتة عن الكمية ، والطريقة (٣) المألوفة التى كانوا يستهلون بها قصائدهم بالرغم من الفترة التى بين كل ناظم وآخر ، هذه تحتاج إلى دراسة طويلة واندماج تام فى تعرف فن التعبير للغة واتساع نطاقها وطلاقتها ، وهى دراسة قل أن نجد بين أيدينا اليوم ثبنا يساعدنا عليها (٤)

يتبع ، محمد حسن عيسى

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٣٦ س ٢ -

(٢) وقد ذكر فى بعض اللوائح الأخرى كالفاموس ، ورب غيل حسن لوته ، بدلا من ، ورب غيل خشن لوته ، الترجيم

(٣) كما فى قول عترة فى القرن السادس الميلادى حيث شكنا ان اسلافه لم يتركوا له شيئا بقوله :

هل قادر الشعراء من مرقم لم هل عرفت الدار بعد توهم

(٤) Charles Lyall : Ancient Arabian Poetry, P. XVI.